ما سمعت وما رأيت

في بلاد السوفيت

-٣-

عود إلى موسكو :

لقد أتيح لي أن أعود الى موسكو زائراً إياها زيارة ثانية بعد مضي عامين كاملين على زيارتي الأولى لها ، وبعد نشر المقالين السالفين في هذه المجلة[1] . وكان ذلك في الثلاثين من تشرين الأول سنة ١٩٥٦ صحبة فخامة رئيس الجمهورية السيد شكري القوتلي بصفة كوني طبيبه الخاص ، وبدعوة رسمية من حكومة الاتحاد السوفياتي ، الى قضاء مدة تقارب الأسبوعين في تلك الربوع . غير أن الأحداث السياسية والعدوان على مصر جعلتها تقتصر على موسكو دون سواها من المدن التي رسمت الخطة لزيارتها ، وأن لا تستمر سوى خمسة أيام ، كما أن المقام في موسكو قد انحصر من أجل ذلك على المداولات السياسية موضوع تلك الساعة .

وأنا الذي لا شأن لي بالسياسة وما إليها ، انتهزتها فرصة سانحة للاستزادة لـ (ما سمعت وما رأيت) بالاطلاع على شؤون لم يكن بوسعي الاطلاع عليها في الرحلة الأولى ، وارتياد أماكن لم يكن ليسمح لي بارتيادها ، فأفدت فائدة ملموسة وأضفت نتاج هذه الرحلة الثانية الى سابقتها ، وأتممت بها بعض ما فاتني في الأولى .

ولقد تمت هذه الرحلة المباركة بنتائجها الطيبة على متن طائرتين سوفيتيتين

---

(١) انظر المجلة مج ٣١ : ص ٤١٦ و ص ٥٨٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أقلتنا الرئيس الأول وصحبه ، الواحدة من طراز فخم للغاية تستوعب ثمانية ركاب على أرائك وثيرة ، والثانية ذات مقاعد عادية ودون الاولى زخرفة ولكنها أفضل مما سبق لي أن امتطيته من الطائرات السوفيتية في الرحلة السابقة .

والطريق التي سلكناها في هذه الرحلة هي غيرها عن السابقة إذ كان الاتجاه شمالاً فوصلنا شبه جزيرة القريم بعد طيران استمر زهاء أربع ساعات وهبطنا في مطار عاصمتها المعروفة بسيمفروبول [1] (Simferopol) بعد تحليق الطائرة فوق بغشه سراي (Bokhchi Saray) حيث لاقانا قبل حط عصا الترحال في المطار الجو الرومي العاصف ورذاذ الثلج . وبعد الاستراحة تابعنا طريقنا الى (كيف) حيث بتنا ليلة واحدة وزرنا في اليوم الثاني المدينة ، ومنها الى موسكو حيث بقينا أربعة أيام نزلنا في جناح خاص من أحد قصور الكرملين عائدين بعدها الى سيمفروبول مباشرة ومنها الى مدينة حلب فدمشق .

مدينة كيف :

تعد مدينة كيف (Kiev) من أقدم مدن الاتحاد السوفيتي ، وهي عاصمة جمهورية أوكرانية [2] (Ukraine) المستقلة ، طفنا في أرجاء هذه المدينة الجميلة

(١) القرم أو القريم (The Crimea) شبه جزيرة في البحر الأسود تتصل بضيق (Perékop) بالبر الروسي وهي إدارياً جمهورية ذات حكم ذاتي (Autonomous Republic) معظم سكانها من المسلمين والأرمن واليهود ، وعاصمتها سيمفروبول وتكتب بـ (Cymphropol) ايضاً مدينة تتارية عدد نفوسها زهاء ١٤٣٠٠٠ نسمة وهي مشهورة بالفواكه المجففة والمحافظة (كونسروة) . وبغشه سراي المذكورة هي العاصمة السابقة أيام خانات التتر ممناها في التركية قصر الحديقة ، وقد خلد اسمها بوشكين (Bushkin) في روايته الشهيرة المعروفة بهذا الاسم .

(٢) تضم جمهورية اوكرانية حالياً عدة مقاطعات لم تكن عائدة إليها ، بعضها ضم إليها سنة ١٩٣٩ (من بولونية) وبعضها الآخر ضم سنة ١٩٤٠ (من رومانية) وجبال الكربات التي ألحقت بها سنة ١٩٤٥ ؛ وهكذا أصبحت تمتد إلى البحر الأسود وبحر آزوف (Azov) بما في ذلك شبه جزيرة القريم .
وجاء في الاحصاء الأخير (وقد نقلته في المقال السابق) أن عدد نفوس هذه ـ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي شوارعها الواسعة ولا سيما شارعها الكبير المعروف بـ (Kreshchotick) الذي كان الألمان قد دمروه بأسره ، وأعيد بناؤه مجدداً مع بعض ناطحات السحاب التي تحوي ١٤ طبقة .

زرنا كنيسة العاصمة الأثرية وتعرف بأياصوفيا من القرن الحادي عشر ، وأعجبنا بما شاهدناه فيها من فسيفساء جميلة وصورة للعذراء في قبة المذبح لها من الطول ٦ أمتار ودائرة الرأس التي يبلغ قطرها متراً واحداً ؛ وانتقلنا منها الى زيارة كنيسة أخرى أصابها بعض الدمار في الحرب ، فالى دير قديم ذي كهوف تحت الأرض ينزل اليها في ١٢ درجة دفن فيها ١٢ قديساً من مؤسسي الدير ، نزلنا في تلك الكهوف المظلمة وكل منا يحمل شمعة أضيئت ليهتدي بها في ذاك الظلام الدامس ، يرافقنا بعض الرهبان الذين شرحوا لنا ما نشاهده من موميات في صناديق من الزجاج . واستغرقت زيارتنا لهذا الدير الأثري قرابة ساعة واحدة .

ولقد كانت شوارع المدينة نظيفة يخترقها نهر دنيبر (Dnepr) الذي يبلغ من العرض فيها ١٠٠٠ متر وشاهدنا الجسر القديم الذي هدمه الألمان واستعيض

— الجمهورية يناهز الأربعين مليوناً ، إلا أن أحد الرجال الرسميين أكد لي أن عدد النفوس الآن ٤٥ مليوناً باعتبار عدد نواب الجمهورية في المجلس النيابي ٤٥٠ نائباً ولكل ١٠٠ ألف ناخب نائب واحد .

وجمهورية أوكرانية مشهورة بخصب أراضيها ذات التربة السوداء (Tchernozion) ومحصول الحنطة فيها يبلغ نسبة ٤٠ـ٤٥ كنتالاً (٤٠٠٠ ـ ٤٥٠٠ كيلو) في الهكتار في جانب الصناعات المديدة (وهي دون صناعات بقعة موسكو) والمناجم الكثيرة . وخصب تربتها النادرة المثال جعلها مطمعاً للغيرين ، فاحتلها البولونيون غير مرة ، واستولى عليها الألمان في الحرب العالمية الثانية ، ونالها من جراء ذلك من الدمار ما يفوق كل وصف ، حتى قدر ما دمر من بيوت عاصمتها كيف بـ ٤٢ في المائة ؛ ونشطت المقاومة الشعبية فيها خلال الاحتلال الالماني لها مما أقض مضاجع المحتلين وأظهر السكان رجالاً ونساءً من ضروب البسالة ما يقرب من الأساطير .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بآخر جديد خصص جانباه للسيارات والمشاة ، والجزء المتوسط منه تمر منه الحافلات الكهربائية ، وللقطار الحديدي جسر آخر لا يبعد عنه كثيراً .

وإن عدد نفوس كيف يقدر الآن بمليون واحد ، وكذلك كان قبل الحرب العالمية الثانية ، إلا أنه هبط العدد خلالها الى ٣٠٠ ألف ، وأصبحت أبنيتها حديثة الطراز ، وإن من شوارعها ما يبلغ عرضه زهاء ٧٥ متراً .

الزيارات في موسكو :

لم يتح لي في هذه الرحلة القصيرة سوى زيارة بعض الأماكن مع التجول في أرجاء الكرملين المختلفة ومشاهدة قصور القياصرة البالغة الفخامة مع ما تحويه من أثاث فاخر . وأدينا صلاة الجمعة في جامع موسكو وزرنا ضريحي لينين وستالين ومصنعاً للطائرات المدنية بالإضافة الى شهود الولائم والحفلات الرسمية .

جامع موسكو :

لقد كانت الطرق المؤدية الى الجامع قديمة دون طرق مركز العاصمة منظراً وبنياناً ، واستقبلنا عند باب الجامع ثلاثة شيوخ [1] عرفنا أن أحدهم الإمام والثاني المفتي والثالث قارئ القرآن . دخلنا المسجد دون أن نخلع أحذيتنا ثم خلعناها مؤخراً ، وقد ترك لنا في الصف الأول فراغ لنشغله ، وحضر الى جانبنا سفير أندونسيا وبعض حاشيته .

لقد كان المسجد غاصاً بالمصلين وكلهم معتمرون بالشايقة (أو القبعة وهي لباس الرأس الخاص في هذه البلاد يشبه ما نسميه بالقلبق) والمسجد مدفأ تدفئة مركزية ومنوّر بمصابيح من النيئون وفيه مكبرات الصوت ، والأثاث فيه بسيط للغاية . وإمامنا [2] كان ذا لحية ، ويلبس جبة عديدة الألوان من نوع ما نسميه بالمرقعيات .

(١) ولقد شاهدت هؤلاء الشيوخ الثلاثة بثيابهم التقليدية في بعض الحفلات الرسمية ولم أشاهد احداً من رجال الدين المسيحي .

(٢) لقد أخبرني زميلي الأستاذ محمد بهجة البيطار ان اسمه الشيخ اسماعيل بن علي الموسكوي.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أما المصلون فجلهم ممن بلغهم الكبر ولم أر بينهم شاباً واحداً . أذن الأذان بصوت غير جهوري ، وكانت خطبة الإمام تفسيراً لبعض آيات القرآن الكريم باللغة الوطنية التتارية التي تحوي بعض الألفاظ التركية والكلمات العربية ، مستشهداً ببعض الأحاديث والأقوال المأثورة باللغة العربية . ولم تكن خطبة الجمعة لتحوي سوى الحث على التخلق بالأخلاق الحميدة . وقد أظهر الرئيس رغبة بالكلام بعد الانتهاء من الصلاة .

أقيمت الصلاة وكان الإمام حسن التجويد ويتقن إخراج معظم الحروف من مخارجها ، إلا أنه كان يلتفت يمنة ويسرة عند إخراج حروف الكلمات من مخارجها . نهض رئيسنا بعد الصلاة وتكلم باللغة التركية الدارجة شارحاً للحاضرين سوء الحال في فلسطين وتعدي اليهود على البلاد المقدسة ، والناس على ما يبدو لم يفقهوا من هذه الكلمة الوطنية سوى بعض المقاطع التي اعتادوا سماعها ، مما حملهم مع جهلهم ما يقال أمامهم أن يجيبوا من حين لآخر بجهر معظمهم بكلمة آمين . ولما لاحظ الإمام وقف بعد انتهاء كلمة الرئيس ونقل ملخص ما تفوه به الى لغة القوم الوطنية ، فلاح التأثر على الوجوه واغرورقت عيون بعضهم بالدمع ، ووعد الرئيس باهداء المسجد سجادة ونسخة من القرآن الكريم . وقرأ بعد ذلك المقرئ بعض آيات الذكر الحكيم .

الكرملين :

الكرملين (Kremlin) ومعناه الحصن أو القلعة ، وهو اسم شائع في المدن الروسية القديمة كاستراخان (Astrakhan) ونيجني (Nijni) ونوفوغوس (Novogus) والمركز الذي من حوله انطلق بنيان مدينة موسكو قبل ٨٠٠ سنة ، شكله على هيئة المثلث المتساوي الضلعين وأحد أضلاعه يوازي نهر موسكوا إذ يشغل ضفته اليسرى . يضم الكرملين عدة مبان ذات شأن من الوجهتين التاريخية والأثرية ، ناهيك بما يضمه بعضها من كنوز لا تقوّم بثمن .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولقد رد هذا الحصن المنيع جحافل الغزاة على أعقابهم غير مرة ، ونجا من حريق سنة ١٨١٢ ، وهو الآن المركز الرئيسي للاتحاد السوفيتي بعد أن كان فيما مضى مقراً للكرمي البطريركي المعروف بكرمي بطريرك موسكو وسائر روسيا . واتخذ مقراً لرئاسة الدولة وما يتبعها بعد أن نقل لينين عاصمة الدولة من لبنغراد الى موسكو وأصدر الأوامر المشددة لصيانة ما فيه من كل أذى ، فنجا من امتداد أيدي السلب والنهب اليه إبان الثورة الكبرى .

وحذا حذوه خلفاؤه في تسيير دفة الحكم ، ضامين الى ما يمثل عهد القياصرة من تحف ومجوهرات وكنوز ، ما هو في منتهى البساطة من مخلفات مؤسس الدولة ، كمكتبه الخاص مع أثاثه المتواضع جداً والأدوات التي صدرت بها تشريعاته في ذاك الحين .

هذا ومذ أن اتخذ الكرملين مركزاً للدولة وشؤونها المختلفة ، جرى إصلاح ما تهاوى وتصدع من بنيان فيه ، وإعادة ما نالت منه يد الزمن الى سابق عهده حتى الكنائس وما فيها من ايقونات وآثار دينية محضة .

وإن أول ما علم من تاريخ هذا الحصن أن أحد الأمراء أحاط في سنة ١١٥٦ ما يملكه من أرض واسعة بسور خشبي ظل زهاء مئتي عام ، تلاه بناء سور آخر من خشب السنديان عندما أصبح هذا المكان المسوّر مركزاً للأمارة أولاً ثم نواة للمدينة التجارية . وشرع في بناء الكنائس فيه في القرن الرابع عشر ، وتبعه تشييد الأبنية الأخرى تباعاً ولا سيما بعد أن اتخذ مقراً لقياصرة روسيا مما أهاب بهؤلاء إلى اقامة الأسوار الحصينة والمنيعة في جانب ما اختصوا به من قصور فخمة .

ويبلغ طول هذا المثلث ميلاً وربع الميل ، وأعد فيه لصد المعتدين ١٩ برجاً ، وأشهرها برج سباسكي (Spassky Tower) الذي يطل على الساحة الحمراء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(Red Square) ويعلو الباب الكبير الذي يحمل الاسم نفسه ويحوي الساعة الكبيرة التي تنقل دقاتها أمواج الأثير الى أنحاء العالم كافة .

ومن الصعب وصف ما يحويه من أبراج أخرى وقصور ضخمة ، فقد نزلنا في جناح أحدها وهو مخصص لضيافة رؤساء الدول وكبار وزرائها في جانب القصور الأخرى التي تسير فيها أعمال الدولة ومقر اجتماع مجلس السوفيت الأعلى . ولعلّ أعظم ما فيها القصر الكبير الذي اتخذ مقراً للقيصر وما فيه من قاعات فسيحة توصل اليها ممات عديدة وأدراج عريضة ، مما يجعل لطراز بنائها طابعاً خاصاً يختلف كل الاختلاف عن أمثاله في بلاد الغرب .

وتقام حفلات الاستقبال والمآدب الكبرى في تلك القاعات التي دونها على ما أظن ما شاهدته في قصر ڤرسايل وسواه في بلاد الغرب ، وإن صونها من يد العبث بها مع تقادم العهد وما حافظت من رونق وبهجة إبان مجد أسيادها القياصرة لما يزيد في دهشة المتجول في أرجائها ويثير إعجابه أيما إثارة ، مع ما أضيف الى ما سلف من نقش أسماء أبطال التحرير في أعلى الجدران تخليداً لبطولتهم واعترافاً بفضلهم .

وان هذا القصر الكبير الذي يعرف بالروسية بـ (Grauoreitaya Palata) ومعناه المزوّى أي ذو الواجهتين ، كان مقراً لعرش القيصر في عهد جنا الثالث ، وجرت فيه عدة أحداث تاريخية في عهد جنا الهائل ، وفيه جرى الاحتفال بالاتفاق على ضم أوكرانيا الى روسية سنة ١٦٥٣ . وفي تلك القاعة الكبرى كان يستقبل القيصر سفراء الدول . هذا ولما كانت التقاليد آنئذ لا تسمح للقيصرة وأميرات الأسرة المالكة بشهود تلك الحفلات فقد شيدت لهن غرفة تكاد تكون سرية ملاصقة للقاعة الكبيرة المعروفة بقاعة العرش ، ليشاهدن الحفلات من خلال كوات غير منظورات . وكانت القاعة تتصل بدهليز له باب من المرمر بغرفة الأميرات المذكورة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقاعة العرش المذكورة في الطابق الأول من القصر المزوى مربعة الشكل ، تبلغ مساحتها السطحية ٤٠٠ متر مربع ، في منتصفها عمود يحمل أربع قبب على هيئة صليب . ولقد كان في غرف ذلك القصر ما بعد الأول من نوعه في ذاك العصر من تدفئة شبيهة بالتدفئة المركزية في عصرنا توزع الحرارة التي تتغلب على برد الجو القاسي من مدفأة كبيرة تحت الأرض تصدر عنها مجار تنقل الهواء الحار الى قاعات القصر وغرفه . وقد استبدلت بها الآن التدفئة المركزية الاعتيادية والشائعة في جميع الأماكن على نحو ما تقدم في المقال السابق .

وإن لمن المفارقات العجيبة ما يراه شاهد الحفلات الكبرى التي تقام في قاعة العرش في هذه الأيام من تزيينات وزخارف في منتهى البذخ ، الذي يمثل أعلى درجات الارستقراطية للعصر الغابر في جانب أغلى اللباس وأكثره بهرجة لأسياد تلك الأيام ، وما يرتديه ورثة أولئك في أيامنا من أبسط اللباس الذي لا يتبدل في جميع شؤونهم المختلفة (مما حمل رجال السلك السياسي على مجاراتهم في ذلك في أغلب الأحيان) في جانب الموائد السخية التي تنصب في مثل تلك المناسبات ، والتي لا اخالها تختلف عما كانت عليه مثيلاتها في الماضي ، ألا يحق لشاهد هذه المفارقة أن يتمثل بقول القائل :

أما الديار فانها كديارهم وأرى رجال الحي غير رجال

ولا يقصر هذا البذخ والترف المتناهيان على تلك القاعة الكبيرة وأضرابها المعدة لاستقبال علية القوم والأجانب ، بل تجاريها فيها سائر أجزاء تلك القصور وغرفها ، ولا سيما ما أعد من بينها من أجنحة خصصت في الوقت الحاضر لإيواء كبار الضيوف ، فلا ينقص هذه شيء من الكماليات ومستلزمات الراحة في أحسن طراز وأفخمه وآخر ما وصلت اليه اختراعات هذا العصر ، حتى المكتبات التي لفت انتباهي في إحداها ما تحويه من كتب عربية بين قديمة وحديثة ما أظنها إلا وضعت في الجناح الذي خصص لاستقبالي فخامة رئيسنا بمناسبة زيارته وإقامته فيه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

زرت الكرملين في الرحلة الأولى بتاريخ ١١ تشرين الثاني سنة ١٩٥٤ صحبة زملائي أعضاء المجمع العلمي العربي زيارة عجلى عابرة ، وأتيح لي في الرحلة الثانية أن أبقى فيه من ٣١ تشرين الأول الى ٣ تشرين الثاني ١٩٥٦ ، وشتان بين الزيارتين ، لم يتح لنا في المرة الأولى إلا ارتياد ما كان يسمح بزيارته لأمثالنا من الزوار ، واعتذر لنا بلباقة عندما طلبنا زيارة بعض المباني بأنها قيد الإصلاح . ولا أنسى أنه في خلال تلك الزيارة حاول بعض زملائنا التقاط صورة فوتوغرافية لأحد المناظر في الكرملين فحيل بينه وبين بغيته ، ولما سألنا عن سرّ ذلك كان الجواب : بسبب مرور إحدى سيارات الحكومة آنذاك .

متحف الكرملين :

ويعرف بـ (Oruheynaya Palate) وهو من أشهر المتاحف وأطرفها ، فيرى الزائر فيه الأسلحة المختلفة والشعارات التي ترمز الى من حكم هذه البلاد على مر العصور ؛ وكنوز القصور الملكية والأشغال النفيسة المتناهية في الدقة من صنع مهرة الصياغ الروس والأجانب والهدايا المختلفة التي أهداها الملوك الى القياصرة . لذا يضم أطنان الذهب والفضة والأحجار الكريمة في الثياب المزركشة للقياصرة والبطاركة ، ناهيك بالعرش المرصع بالماس والياقوت لألكسي ميخائيلوفيش (Alexei Mikhailovich) والتيجان والصولجانات المطعمة بالأحجار الثمينة وقلنسوة مونوماخ (Monomakh cap) وما كان يلبسه القياصرة من ثياب فاخرة في أثناء الحفلات الرسمية وكذلك القيصرات والأمراء والأميرات ورجال الدين ، والعجلات (العربات) الرسمية وألجمة خيلها المزركشة بالذهب والفضة وسرجها وما فيها من قطع الألماس النادرة المثال والياقوت والزبرجد . ولفت انتباهي ما رأيته على احدى القلانس من كتابة عربية (نصر من الله وفتح قريب) قيل لي أن صانعها قد قلد فيها النقش الشرقي . وفي المتحف مجموعة نادرة من الأوسمة الانكليزية والهدايا صنع انكلترا ، مما يعز أن ترى أمثالها في البلاد التي صنعتها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الآثار الأخرى في الكرملين :

إن من أعجب ما يراه الزائر في الكرملين الناقوس الكبير (Tsar Kolokol) وبعد أكبر ناقوس في العالم، وتروى عنه القصص الكثيرة التي لا مجال لسردها . تم صنعه في القرن الثامن عشر ويبلغ وزنه ٢٠٢ طن وارتفاعه ٦ أمتار ونيف وثخن جداره ٦٠ سم . وحدث لما رفع الناقوس على اسقالة [1] خشبية بعد صهر الحديد ووضعه في القالب، أن اندلع لهيب الحريق الكبير في الكرملين سنة (١٧٣٧) واحترقت الإسقالة وسقط الناقوس على الأرض وتصدّع من أحد جوانبه وانشق عندما لامسه الماء وانفصلت عنه قطعة يبلغ وزنها ١١ طناً .

ومما تحويه إحدى باحات الكرملين المدفع الكبير (Tsar cannon) بين المدافع الأخرى، وهو من مصنوعات القرن السادس عشر ووزنه ٤٠ طناً، ويقارب وزن كل قنبلة من قنابله الطنين ويحشى بزهاء ٥٠٠ كيلو من البارود طوله ٣٠ر٥ أمتار، ولمعته ٩١٧ ميلمتراً .

وفي الباحة المعروفة بباحة الكنائس أربع كنائس تاريخية تم تجديد بعضها ولا يزال بعضها الآخر قيد التجديد . والغريب أن مبدأ اللادينية والإلحاد السائد في النظام القائم لم يكن حائلاً دون تجديد الكنائس الأثرية وبذل جهد الطاقة لإعادة رونقها القديم إليها وإن أغلقت أبواب معظم الكنائس في موسكو وسواها من بلاد الاتحاد السوفيتي . وإن منظر الكنائس الأربع وقبابها الذهبية وهي تتوهج وتتألق في رابعة النهار لمن المناظر الأخاذة التي هي أول ما ينتبه إليه الزائر للكرملين آخذة بمشاعره لما يراه من دقة في فن المعمار الذي يمثل العصور السالفة المختلفة .

---

(١) من مستدركات صاحب تاج العروس ما ذكره من أن إسقالة بالكسر ما يربطه المهندسون من الأخشاب والحبال لينوصلوا بها الى المحال المرتفعة والجمع اساقيل عامية . وفي معجم عطيّة : ان كلمة Escala في البرتغالية والإيطالية و Scale في الانكليزية و Echelle في الفرنسية هي من أصل عربي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فهناك كاتدرائية انتقال العذراء (Assumption) وتعرف بـ (Uspensky) من طراز لومباردي بيزنطي (Lombardio - Byzantine) شيدت من سنة ١٤٧٥ الى ١٤٧٩ وهي أقدمها ، فيها كانت تقام حفلات تتويج القياصرة والقداسات الخاصة بهؤلاء . وعندما زرتها في المرة الأولى كانت آثار الإصلاح لا تزال قائمة فيها . ولم أر في هذه الكنيسة ولا في سواها من الكنائس الأخرى المقاعد التي يجلس عليها المصلون عادة ، ولاحظت المقعد أو الكرسي المخصص لجلوس القيصر وحده ، لأن الطقوس الأرثوذكسية الروسية تقضي بالصلاة وقوفاً ، ولم يكن يسمح آنذاك لغير القيصر بالجلوس . وكاتدرائية انتقال العذراء مبنية بالحجر الأبيض تعلوها خمس قبب مذهبة ، وقيل إن أحد المعماريين الايطاليين قد اشترك بالاشراف على تشييدها ، وانتهى اصلاحها سنة ١٩٥٠ .

والكنيسة الثانية هي كنيسة البشارة (Annunciation) وتعرف بالروسية بـ (Blagoveshchensky) ذات القبب التسع ، يعود تاريخها الى ١٤٨٤ — ٨٩ وتم اصلاحها سنة ١٩٤٧ . وكانت الكنيسة الخاصة لقياصرة روسيا ، وفيها مجموعة نادرة من الأيقونات الروسية القديمة فضلاً عن الصور القديمة من القرن الخامس عشر .

هذا وقد بذل المشرفون على إصلاح مثل هذه المباني القديمة جهدهم في إعادتها الى عهدها الأول ، مزيلين ما استجد من طبقات الطلاء التي بلغ عدد بعضها أربعاً مظهرين طبقة الفسيفساء الأولى .

وتم في شهر حزيران سنة ١٩٥٥ إصلاح الكنيسة الثالثة المعروفة بكنيسة رئيس الملائكة (Arkhangelsky) وهي من أعظم الكنائس الروسية ذات القبب الخمس ، ويعود تاريخ تشييدها الى ١٥٠٠ — ١٥٠٩ وظلت زهاء ثلاثمائة سنة مدفناً للقياصرة وكبار الأمراء ، ومن أجمل ما فيها الصور البادية على جدرانها وفوق قبور القياصرة ممثلة ثياب القرون الوسطى وزخارفها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والكنيسة الرابعة تعرف بتنظيم الكهنة (Ordination of prists) بنيت من سنة ١٤٨٤ الى ١٤٨٦ وفيها أعمدة جميلة .

إن هذه الكنائس الأربع في الكرملين هي الآن متاحف يرتادها الزوار من سوفييت وأجانب ولم تعد تستعمل للعبادة .

ويسوقني ذكر هذه الكنائس وما تقدم وصفه من جامع موسكو ، الى الحديث عما هي الحال في الأديان والتدين في هذه البلاد .

التدين والأديان :

لم تتح لي زيارة أية كنيسة لا تزال تقام فيها شعائر الدين ، وأجتزئ فيما يلي بما سمعت وقرأت عن النشاط الديني في البلاد .

لا شك أن نظام الحكم القائم في بلاد الاتحاد السوفيتي لا يعترف بالأديان جميعها ، ومن مأثور القول عن لينين « الدين افيون الشعب » [1] ، والهدف الذي يرمي اليه النظام من الإلحاد هو صهر جميع السكان في بوتقة واحدة وإزالة كل فارق بين المواطنين كافة ، وقطع كل صلة بين هؤلاء وبين أي سلطة أخرى في خارج البلاد . وعلى ذلك فقد طغت في بادئ الأمر موجة اضطهاد الأديان واستمرت مدة مديدة ، ظل المتدينون خلالها يمارسون شعائر الدين سراً ، وتعاليم الإلحاد واللادينية تذاع علناً وفي المدارس . وعطلت الكنائس وحوّل بعضها الى متاحف ومخازن وأغلقت المدارس الخاصة باعداد رجال الكهنوت .

وبدأ التساهل ازاء الكنيسة منذ عام ١٩٤١ إبان الحرب العالمية الثانية عندما غزا الألمان بلاد الاتحاد السوفيتي ، ورأى رجال الحكم آنذاك ضرورة التذرع

---

(١) وأضيف الى هذه الجملة المأثورة : أو نوع من الفودكا الروحية يغرق فيها عبيد الرأسمالية كيانهم الإنساني وحقهم في المطالبة بأية حياة بشرية كريمة . نقلاً عن ترجمة السيد محمد المعلم لكتاب (ثلاث سنوات في موسكو) لولتر بيدل سميث سفير أمريكا السابق في موسكو .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بكل الوسائل لكسب اخلاص الشعب المحارب ، فضلاً عن كسب ثقة دول الغرب الحليفة . حتى أن بطريرك موسكو سمح له أن ينشر عام ١٩٤٢ كتاباً بعنوان (حقيقة الدين) داعياً فيه الى الإخلاص نحو الاتحاد السوفيتي ، وسمح أيضاً في عام ١٩٤٣ بانشاء مجلس للشؤون الدينية الأرثوذكسية الغاية منه الإشراف على شؤون الكنيسة ، وهكذا عادت الحياة الدينية تدريجياً حتى وصلت الى ماهي عليه الآن .

فقد ذكر القس Mervey Stockwood في كتابه (ذهبت الى موسكو) والذي نقلت عنه بعض المقاطع في مقالي الأول ، ان عدد الكنائس في موسكو كان ١٦ ألفاً وأصبح الآن ٥٥ . ونقل عن لسان بطريرك موسكو أن في الاتحاد السوفيتي كله الآن ٢٥ ألف كنيسة و ٣٢ الف كاهن منهم ٧٥ مطراناً . ورجال الدين هؤلاء والمعابد بأجمعها ليس لها من الموارد إلا ما يتبرع به المتدينون .

وإن بقاء النزر اليسير من الكنائس في موسكو وسواها من المدن جعل هذه المعابد تكتظ بجموع المصلين والمتعبدين وفي أيام الأعياد خاصة . ويروي سفير أمريكا السابق الذي دُعي الى حضور صلاة عيد الفصح عند منتصف الليل في كاتدرائية موسكو ، أنه قد طلب اليه أولاً أن يحضر قبل موعد الصلاة بساعة تحاشياً للازدحام الذي يحدث في مثل هذه المناسبة . ولاحظ عند وصوله الى الباحة أن هذه قد بدت كأنها كتلة متماسكة من أجساد البشر ، وأن رجال الشرطة قد أخفقوا في شق الطريق أمامه ، وأن الجموع داخل الكنيسة كانت تكوّن كتلة بشرية أخرى ولم ير أحداً بين هؤلاء من ساسة أو عسكريين . وقيل له إن هذا الجمع قد حضر الى الكنيسة منذ منتصف النهار لكي يستطيعو الاحتفاظ بأماكنهم ، وما الى ذلك من الوصف الدال على كثرة شهود الصلاة

وذكر مارشال ماك ديوفاي (Marshall Mac Duffie) في كتابه البساط الأحمر [1] عند زيارته لكاتدرائية كييف الكبرى في أثناء الصلاة في أحد أيام الأحد : أن عدد المصلين لم يكن يتجاوز ٣٥٠ و ٥٠٠ بين قادم وذاهب

(١) The red carpet طبع في لندن سنة ١٩٥٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأن النسبة بين النساء الى الرجال كانت ٨ أو ٩ نساء لكل رجل ، وان أكثرهن كن مسنات ولباسهن دون الوسط ، ولم يكن بين الحضور من هو دون ٣٥ من العمر سوى ١٥ وسواهم ممن تخطى ٥٠ أو ٦٠ . وقارن الكاتب بين عدد الكنائس في موسكو (٥٥) وعدد السكان (وقد ذكر انه ٧ ملايين وأظنه يبلغ ٨ ملايين الآن) وان مدينة نيويورك وعدد سكانها ٨ ملايين فيها أكثر من ٢٦٠٠ معبد .

هذا وقد علمت أن في موسكو جامعين : الواحد الذي أديت صلاة الجمعة فيه والثاني أصغر لم تتح لي زيارته ، وعدد المسلمين في موسكو يبلغ ٣٠ ألفاً . ولليهود كنيس واحد ويقدر عددهم في موسكو بـ ٣٠٠ ألف ، وأن في موسكو كنيسة انجيلية لوثرية و كنيسة للرومان الكاثوليك . وحاولت زيارة مسجد لينغراد في الرحلة الأولى فاهتدينا الى مكانه بعد جهد ليس بالقليل فاذا به بناء حسن الظاهر له مئذنتان مرتفعتان وقبة جميلة وواجهة من القاشاني القديم قرأت فيها (وكانت الصلاة على المؤمنين كتاباً موقوتاً ، وحافظوا على الصلاة) . وكان باب المسجد يغطيه الثلج ، فحاولنا الدخول من باب جانبي له فشاهدنا سيارة شحن تخرج منه حاملة بعض الصناديق ، وكان منعنا من الدخول بدعوى أنه قيد الاصلاح ، وأكبر الظن أنه قد اتخذ مستودعاً للبضائع . ولم تكن المساجد التي زرناها في طاشكند وسمرقند بأحسن حالاً فهي مهملة جداً والمصلون فيها كانوا ممن بلغوا من العمر عتياً . ويظهر أن الصدقات التي على المسلمين أداؤها لصيانة جواميعهم وإعاشة القائمين عليها قليلة جداً ، إذا ما قيست بما يتبرع به المسيحيون في هذه البلاد ، مع ان من المسلمين من أصبح من أصحاب الملايين على ما علمت من استثمار الأراضي الزراعية التي أقطعت اليهم [1] .

(للبحث صلة) الدكتور حسني سبح

(١) وهي الطريقة المعروفة بكولخوز (Kolkhoz) حيث تقطع الحكومة فئة من الناس مساحة معينة من الأراضي ولا تطلب منهم مقابل ذلك إلا أداء جعل معين من المحصولات الزراعية وما تبقى من هذه يوزع بين المشتركين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net